عبد الكريم غلاب

تعقيب على بحث « الاستعمار وازمة التطور الحضاري » للدكتور ابراهيم ابولغد

في بحثنا لازمة التطور الحضاري في الوطن العربي ودور الاستعمار في هذه الازمة يجب ان نعود قليلا الى الخلفيات التاريخية للاستعمار حتى نقيم مدى اثره في ازمة التطور الحضاري في بلادنا .

واعتقد ان الاستعمار الاوروبي للعالم العربي لم يهاجم بغتة هذه البلاد في القرن الماضي واوائل هذا القرن ليضع حدا لاستقلالها فحسب ، ولكن له خلفية تاريخية لها صلة قوية بالتطور الحضاري لاوروبا وصراع الحضارة مع العالم العربي. وواضح ان مهاجمة الجزائر سنة ١٨٣٠ ثم تونس ١٨٨٠ ومصر سنة ١٨٨٩ ثم السودان سنة١٨٩٤ ثم المغرب سنة ١٩١٢ ثم تقسيم منطقة الشرق العربي الاوسط بين فرنسا وانجلترا بعد الحرب العالمية الاولى ، واضح ان هذه العملية الجريئة لم تكن فقط رغبة في احتلال هذه البلاد بل كانت الى جانب ذلك حلقة من حلقات اصطدام حضارة الغرب المسيحي بحضارة الشرق الاسلامي . وقد بدا هذا الاصطدام منذ الحروب الصليبية التي استمرت ما بين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر .

وتركت رغبة الاستعمار في الفكر الاوربي في القرن السادس عشر حين بدات فكرة السلطة العليا تراود الاباطرة والرؤساء الدينيين والمدنيين في اوربا ، واخذت دول غرب اوربا وعلى الاخص اسبانيا والبرتغال تقتسمان الاراضي الاوربية ثم تطلعوا الى ما وراء البحر ليمدوا امبراطوريتهم على افريقيا والامريكتين معا . فيما يخص الجانب العربي من افريقيا كانت المنطقة الغربية ، اي المغرب العربي ضحية هذا الهجوم الاستعماري اذ اخذ البرتغاليون يهاجمون المغرب منذ القرن الخامس عشر . وفي القرن السادس عشر كان البرتغاليون بالاتفاق مع الاسبانيين قد فصلوا المغرب نهائيا عن البحر باحتلال شواطئه الواسعة على المحيط بكل مدنها تقريبا كما احتلت اسبانيا شواطىء الجزائر من وهران حتى المرسى الكبير ، وحتى طرابلس في ليبيا تنفيذا للحلف الاستعماري الاسباني البرتغالي .

ولولا الحملة التي قام بها شعب المغرب في الربع الاخير من القرن السادس عشر والتي انتهت « بمعركة الملوك الثلاثة » في وادي المخازن في اغسطس ١٥٧٨ والتي قضي فيها نهائيا على الامبراطورية البرتغالية ، لولا هذه الحملة لتغير وجه التاريخ العربي .

لم يكن الهدف من الحملة على شمال افريقيا العربية دفاعيا حتى لا يعود العرب الى الاندلس فحسب ، ولو ان هذا السبب كان رئيسيا ، وما يزال المغرب ، يعاني نتائجه في احتلال اسبانيا لسبتة ومليلية ، ولكنه الى جانب ذلك كان سببا اقتصاديا ، فقد كان البرتغاليون يستهدفون السيطرة على منافذ الطرق الصحراوية وابعاد كل منافس عنها ، والوصول من وراء ذلك الى السيطرة على ذهب السودان ـ الذي كان في يوم ما في يد العرب المغاربة ـ وحاولوا الى جانب ذلك الاستيلاء على منطقة سوس المغربية التي كانت اكبر حقل لقصب السكر والقطن ، وكان المغرب ينتجهما بكثرة ، وهكذا استولوا على مراكز الذهب الاقتصادية للمغرب ، فخنقوا المغرب اقتصاديا ووقع في ازمة لم يستطع معها مواصلة دوره الحضاري في المنطقة العربية الغربية ، كما لم تستطع الجزائر ولا تونس لهذا السبب .

لم يكن الاستعمار الاوربي الحديث الا حلقة من هذه السلسلة الطويلة ، فقد تطور العالم الاوربي صناعيا في القرون الثلاثة الاخيرة واخذت دول غرب اوربا تستفيد من المغامرات الاسبانية والبرتغالية ، وتطور التفكير الاستعماري من عملية النهب الى عملية اكثر تعقيدا هي ما يمكن ان نسميه النهب الدائري اذ اصبح النظام العالمي الجديد يتركز في السيطرة على الارض المفتوحة لتحويل انتاجها من المواد الخام الى موارد لصناعة راسمالية توسعية ، واستنزاف اليد العاملة في شكل عبيد من افريقيا ، وتحويل انتاج اليد والارض الى مواد تجارية تعود بدورها الى الاراضي المستلبة لتدر الذهب والمال على الدول المصنعة المستلبة .

وهكذا لم يكن الاستعمار عملية احتلال واستيلاء على الارض بدعوى الدفاع عن النفس عند الاوربيين الغربيين ، او لنصرة الكنيسة عندهم وعند الاخرين فحسب ، ولكنه تحول الى اخضاع الحضارات القديمة في العالم العربي بكل ما تقوم عليه من اسس ومفاهيم وصناعات لتفتح المجال امام الصناعات الفرنسية والانجليزية والاسبانية والبرتغالية والايطالية .

والواقع ان هذا التحدي الحضاري انزلق بالعالم الى تقسيم خطير . فقد اصبح الاستعمار كما يقول بيتر وورسلي في كتابه « العالم الثالث » نظاما عالميا اساسه الفتح ودعامته القوة .والعالم الجديد لم يكن عائلة من الامم المنسجمة . لقد كان بشكل رئيسي غير متناسق ، ففي القطب الواحد وقفت اوربا بصناعتها ، وفي القطب الاخر الامم التي حرمت من كل ميراث . ومن التناقض الظاهري ان العالم قد قسم خلال عملية توحيده الى مناطق نفوذ والى غني وفقير » .

وتعدى التحدي هذا النطاق « ليصبح تفوق اوربا الطبيعي في نهاية القرن التاسع عشر مبدأ ساريا لا مراء فيه . وقد حكم بالانحطاط والضعة على حضارات الشرق المتنوعة التي كانت محترمة يوما ما . حتى الاوربيين يعلنون في تبجح : ان رفا واحدا في مكتبة اوربية جيدة يعادل كل التراث الوطني للهند والجزيرة العربية .

وكان لهذا التحدي اثره النفسي الخطير فان « تدويل » التفوق الكلي للحضارة الاوربية وتقبلها عامة هما اللذان ابقيا العالم غير الاوربي في حالة خضوع نفساني طويل الامد ، وليست القوة وحدها هي التي فعلت ذلك .

هذا هو التحدي الاول من الاستعمار الغربي للحضارة العربية ، وهو تحدي الرأسمالية الخطيرة التي زحفت على العالم تدمر في طريقها كل القيم الانسانية فتحتل الارض ، وتستعبد الانسان ، وتستغل الثروة وتقطع منافذ الاتصالات الانسانية لتحتكرها لمصلحة نموها ، اي نمو الثروة الفردية .

ولكن هذا التحدي كان يحمل في طياته تحديا من نوع آخر . فقد كان القرن الثامن عشر والتاسع عشر اللذان تركز فيهما الاستعمار الاوربي في العالم يعبر عنهما بعهد النور ، ويصف ميشليه القرن الثامن عشر بانه « القرن العظيم » . ومن حق الحضارة الاوروبية ان تفتخر بهذا القرن . فقد تطورت العلوم الطبيعية والكيميائية والرياضيات وعلم الفلك والعلوم الانسانية تطورا كبيرا وظهر امثال ديكارت ولوك ونيوتن وجان جاك روسو وكانت وغيرهم من الذين ما تزال تقوم على كتبهم اسس الحضارة الفكرية . ويمكن ان نقول اننا دخلنا في بداية القرن العشرين منذ القرن الثامن عشر من حيث التطور العلمي . اذ اصبح الانسان يتعلم كل يوم شيئا جديدا على غرار ما تواجهنا به حضارة القرن العشرين . ساد في هذا القرن الايمان بتقدم الانسانية وبدا الانسان ينسلخ من التعبد للماضي ، والانقياد المطلق لرجال الدين ولاكذاب الخرافية والطقوس التي التصقت بالدين او استخدمها رجال الدين لابقاء سيطرتهم على المجتمع . وظهرت مفاهيم فلسفية جديدة ، في الفكر الديني والفكر المادي على السواء . كما ان القرن التاسع عشر سجل الايمان المطلق بالعلم واكتشاف الكون وانتصار العلم التجريبي النفعي . هذا بالاضافة الى تطور التقنيات العسكرية والملاحية والصناعية والانسانية .

القرن الثامن عشر والتاسع عشر اوجدا نوعا من التشبع اوالامتلاء في الحضارة الفكرية والمادية الاوربية . والمكسب يولد مزيدا من المطامع والفكر المادي والتقنيات تولد مزيدا من التنافس . ومن ثم كانت الحروب بين دول اوربا بدأت اقليمية وانتهت دولية ، لمحاولة السيطرة على المحيطات ، وعلى القارات الاسيوية والافريقية ، استمرارا للامبراطوريات الاسبانية والبرتغالية . فبدأت محاولات الاستيلاء على الهند منذ بداية القرن الثامن عشر ، وتم هذا الاستيلاء سنة ١٧٨٩ ونحن نعرف ماذا جره الاستيلاء على الهند من مشاكل استعمارية للعالم العربي باجمعه .

وهناك اذن تحد اخر ليس قوامه المال والقوة الصناعية ولكن قوامه العلم والحضارة الفكرية . النمو العلمي والفلسفي وتطور الحياة في الميدان التقني هو الذي جعل سادة اوربا من الفرنسيين والانجليز ينظرون بنوع من الاستخفاف للحضارات القديمة التي نشأت في الهند او على ضفاف البحر المتوسط الجنوبية والشرقية باعتبارها حضارة انتهت وتجاوزها الزمن ، ولم تعد غير مومياء تشد عقل الانسان بسحر غيبي الى الماضي وتغرقه في كثير من التضليل الخرافي .

هذه الحضارة التي نقلتها اوربا لا يمكن اغفالها في بحث ازمة الحضارة في الوطن العربي ، ولو ان الاوربيين نقلوا معهم حضارتهم لهم ومن اجلهم ، ونقلوا بعضها ليسحرونا ويؤثروا على قوة مقاومتنا ، كما فعل نابليون في مصر ، او ليستعينوا بهذه الحضارة الفكرية في اكتساح بلادنا والسيطرة عليها ، كما فعل علماء الانسانيات وهم يتسربون الى المناطق المختلفة من بلادنا العربية ليكتشفوها جغرافيا وتاريخيا وانسانيا وحضاريا ـ . وكانت تقاريرهم هي التي اعتمدت عليها جيوش الاحتلال وهي تشق طريقها في الجبال والادغال والصحاري .

الجانب الثالث من التحدي الحضاري الذي واجهنا به الاستعمار، قصد الى ذلك او لم يقصد ، هو النظم السياسية والاجتماعية الجديدة التي تطورت في اوربا في القرون الثلاثة الاخيرة نتيجة للتطور النظري والعملي في هذه البلاد فنحن نعرف التطور الذي حدث منذ القرن السابع عشر بانجلترا في تطور نظام الدولة وظهور الفئات الاجتماعية من الاورستقراطيين والبورجوازيين والملكيين والداعين الى الاشتراكية ، والعاملين في سبيل الديمقراطية والنظام التمثيلي . ونحن نعرف ان الثورة الفرنسية انبعثت من الاحتكاك بين هذه الفئات الاجتماعية التي تركزت في المدن التي كان فيها البورجوازيون مسيطرين ، وبدأت الطبقة البروليتارية تبحث عن وجودها نتيجة تطور الصناعة ، وفوق هؤلاء واولئك كان النبلاء واصحاب الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية ، ثم طبقة الفلاحين الفقراء والى جانبهم الاقطاعيون الكبار . هذا الخليط من الفئات الاجتماعية التي فتحت اعينها على عصر النور والعلم بدأت تفكر في نفسها وفي مصالحها وفي حقوقها الانسانية وكانت الثورة التي انتهت بالغاء النظام الاقطاعي في صورته القديمة والتي حققت الحرية والمساواة والعدالة ، واعلنت حقوق الانسان وحولت النظم الاقتصادية والتشريعية بعد ان وضعت السلطة التشريعية والتنفيذية في يد الشعب وحاولت اعادة النظر في توزيع الثروة ، ومكنت الفرد من حرياته المطلقة .

وعن الثورات الانجليزية والفرنسية نشأت الانظمة السياسية والاجتماعية المختلفة : الجمهورية بدلا من الملكية المقيدة بدلا من الملكية المطلقة الدكتاتورية ، الديمقراطية البرلمانية ، الاقتراع العام، المجالس المنتخبة الخ .

هذا فكر حضاري انتقل الينا مع الاستعمار ، اراد الاستعمار ام لم يرد شعرنا بذلك نحن او لم نشعر . بل ان الاستعمار ـ والاستيطاني منه بصفة خاصة ـ اخذ يطبق هذه الانظمة في بلادنا، فكان ينظم المجالس البلدية والغرف التجارية والنقابات وينظم انتخابات لممثلي المستوطنين الفرنسيين مثلا في المجلس الوطني الفرنسي بل الممثلين للبلاد التي الحقها بالوطن المستعمر في المجلس كما كان يحدث في الجزائر .

هذه انظمة حضارية دخلت لبلادنا عن طريق الاستعمار ، سواء منها ما صنعه هو بنفسه او ما قلدناه فيه . ودخلت بلادنا مع ما يتبعها من فكر تحرري تقدمي يهدف كما هدف الفكر الاوربي حينما اصطنع لنفسه هذه الانظمة ـ الى تطوير البلاد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا على اساسها . وهي بدون شك تحد للانظمة الحضارية التي عاشت عليها بلادنا ردحا طويلا من الزمان .

والتحدي الرابع نجده في التراث الادبي والفني والموسيقى الذي انتقل الينا مع الاستعمار ، فأخذ العالم العربي يتطلع الى ما ينتجه الادباء والفنانون والمثقفون على العموم من انتاج باللغات التي تعلموها عن طريق الاتصال الذي اوجده الاستعمار ، ويتأثرون بالفنون المختلفة من مسرح وموسيقى وفنون تشكيلية وصحافة وطباعة الخ . وهو نوع من التحدي للحضارة العربية التي لم تعرف من هذه الفنون الا التراث الادبي والموسيقى والتصوير الذي نعرف .

والتحدي الخامس نجده في الفكر الاشتراكي الذي انتقل الينا من

الاتصال الفكري بالثورات الاوربية وخاصة ثورة اكتوبر ثم مكن له في الوطن العربي بعد الحرب العالمية الثانية وعلى اثر انتصار الاتحاد السوفييتي على الجيوش النازية والتفتح الذي شهدته هذه البلاد بعد الانعزال الستاليني ، ثم بعد الثورة الشيوعية في الصين وانتصار الماوية في الشرق الاقصى بعد حرب فيتنام .

هذا الفكر الحضاري ليس اتجاها سياسيا فحسب ، ولكنه الى جانب ذلك اتجاه فكري فلسفي اقتصادي يمكن ان نقول انه اقوى فكر يمكن ان يصطدم مع الحضارة العربية الاسلامية التي عاش عليها الوطن العربي في تاريخه .

هذه جوانب من التحديات ليست كلها سلبية ، ولكن الجانب الايجابي فيها لا يقل عن الجانب السلبي ان لم يكن يفوقه بكثير. وخلاصة هذا الجانب الايجابي ان الاستعمار وصلنا بالعالم وبالحضارة الحديثة ، وبالفكر المتطور الحديث .

هل كنا سنصل دون واسطة الاستعمار ؟

سؤال اعتقد ان الاجابة عنه لا تجدي . فلم نكن في حاجة الى المؤرخين الاستعماريين ولا الى المستشرقين ليفتحوا اعيننا على الجانب الايجابي في الحضارة الاوربية التي نقلها الاستعمار لبلادنا. ولم نكن في حاجة الى « الدراسات والبحوث القليلة الجديدة التي رفضت الاسس الفكرية لهذه النظرية ، والتي تدل دلالة واضحة على ان حركات التغيير في العالم العربي ، ومحاولات استئناف النشاط الفكري والسياسي سبقت الوجود الاستعماري في المنطقة » كما يقول الاستاذ المحترم الدكتور ابراهيم ابولغد .

فالفكر الفلسفي الذي قامت عليه حركة الوهابيين المنطلقة اساسا من الفكر المتحرر لابن تيمية ، والحركات التي قامت في الازهر او في فلسطين او عند الشهابيين في لبنان او الصراع الذي كان بين الحكم التركي والشعب في مصر والجزائر وتونس كل هذه الحركات التحررية لا يمكن ان تعتبر بديلا للتحدي الحضاري الذي واجهنا به الاستعمار وهو يقتحم الوطن العربي .

وما نظن اننا في حاجة الى التدليل على ان مسيرة الثورة الوهابية في الجزيرة والسنوسية في ليبيا والشهابية في لبنان لم تكن لتفتح اعيننا على حضارة القرن العشرين ، ولم تكن لتوجد ازمة حضارية نعانيها في حياتنا وندرسها في هذه الندوة .

ويقول الدكتور ابراهيم : « ان الاحتلال الانجليزي لمصر والاحتلال الفرنسي لتونس جاء بعد ان نجحت الفئات الوطنية في مصر وتونس في وضع اسس طيبة للحكم الوطني ، اذ ان الحركات الوطنية والفكرية في مصر وتونس عبر القرن التاسع عشر صارعت الفئات الحاكمة للحصول على مزيد من حرية العمل والفكر ولتحديد الحكم المطلق للولاة منها ، ووضع اسس دستورية وتشريعية كفيلة بالمساهمة الشعبية في الحكم .

ولعل الدكتور ابراهيم في حاجة الى كثير من الحجج ليؤكد ان هذه الحركات ذاتية وليقرر ان النفوذ الانجليزي في مصر لم يبدأ سنة ١٧٧٥ حين نال الانجليز الترخيص لهم بالدخول الى مرفأ السويس ، وحينما انشأوا قنصلية بالقاهرة في السنة التي تليها، وحينما اخذ منذ ذلك التاريخ المبكر الضباط الانجليز والموظفون والتجار يعتمدون السويس في طريقهم الى الهند عبر الصحراء . ثم حينما ركز الفرنسيون ليناقسوا الانجليز ، مثل هذه الامتيازات بعد ذلك بنحو عشر سنوات فقط ، وحينما اخذ الفرنسيون منذ ذلك التاريخ يفكرون في احتلال مصر ، وحينما كون الفرنسيون لانفسهم امة خاصة داخل الدولة المصرية بنظمها وامتيازاتها يرأسها القنصل . ولعله ايضا في حاجة الى كثير من الجهد ليؤكد ان هذا الاستعمار المقنع لم يكن له تاثير مباشر او غير مباشر في اية نهضة نشأت في مصر بعد ذلك .

ولعل احدا منا لا يستطيع ان ينكر ان افكار الثورة الفرنسية قد دخلت مصر عن طريق الجيش الغازي : جيش نابليون سنة ١٧٩٨ وان العلماء الذين صحبوه قد نقلوا الكثير من مكتسباتهم العلمية ـ ارادوا او لم يريدوا ـ الى مصر ، وان البيان الاول الذي اصدره نابليون في الاسكندرية باسم الحكومة الفرنسية يحمل بعض افكار الثورة الفرنسية في الحرية والمساواة والعدالة ، ثم التبشير بعهد الخلاص الذي وجد فيه المصريون فكرة الخلاص من المماليك ، ولم يجدوا فيه بالطبع الخلاص العملي على يد الفرنسيين ولا على يد الاحتلال الفرنسي او الانجليزي بل ان الاحتلال الفرنسي اوحى للمصريين بفكرة المقاومة لهذا الاحتلال نفسه . ذلك ان نابليون اجنبي غريب غير مسلم ، ولا يمكن الا ان يكون كما قال الجبرتي شاهد العصر « انعكاس المطبوع وعموم الخراب » .

وما من شك في ان السنوات القليلة التي قضاها الفرنسيون في مصر قد اثرت في نظام الحكم الذي اقامه محمد علي بعد ذلك، ولو ان الحاكم المطلق لا يمكن ان يستفيد من التجارب ، ولو كانت مثل التجارب التي اتى بها عصر التنوير . ونحن لا ننكر الاثر الذي تركه الحكم التركي في العالم العربي ، وخاصة في مناهضة استبداد السلطة والتطلع الى حكم ديمقراطي . فكله من نتاج الحكم الاجنبي سواء كان تركيا او فرنسيا او انجليزيا .

هذا التحدي الحضاري في مظاهره المختلفة التي تحدثنا عنها صاحبه نحد من نوع اخر وضع اللقاء الانساني ، آنذاك ، حول حضارة انسانية واحدة في شبه المستحيل فقد انتشر الاوروبيون في الشرق والغرب وحتى في اوربا نفسها تدفعهم روح الفتح والغزو. اكتملت لهم الوسائل الفكرية والفلسفية والعملية والتقنية ، وفجروا صراعهم الداخلي ـ بين انجلترا وفرنسا مثلا ـ فيما وراء البحار ، فأخذوا يتنافسون على الهند مثل ما تنافسوا على امريكا وما بين امريكا والهند وما يقع في طريق مراكز الامبراطوريات هذه ، ويصفون حساباتهم بالحروب ، التي تنتهي بغالب ومغلوب ، ولكنها تنتهي مهما يكن الغالب باحتلال مستعمرة جديدة . وكان الوطن العربي ضمن هذه المستعمرات المحتلة . ولكنهم كانوا ينظرون الى هذه المستعمرات نظرة احتقار واستخفاف ، ويعاملونها بما يتبع الاحتقار والاستخفاف من اضطهاد واستغلال . فقد اخذوا يؤمنون بانهم وجدوا هذه المستعمرات اقواما متخلفين في الحضارة وغيبيين لاهوتيين ، بينما كانت الفلسفة الاوربية يميزها العقل العملي، والوسائل العلمية التي يستخدمونها تطبعها التجربة .

وقد سيطرت روح الاستغلال والربح والاضطهاد على روح تكوين الانسان وتطويره التي بدأت في القرنين السادس عشر والسابع عشر. فلم تعد الحضارة مطبوعة بطابع الروح العلمية الحقيقية حتى داخل البلاد الاوربية نفسها ، ولذلك كان نشر المعرفة والحضارة الفكرية انما يأتي عفويا عن طريق الاقتداء والتقليد من المستعمر للمستعمر، او عن طريق الضرورة التي تدفع بالمستعمر ان يرفع من شأن المستعمر حتى يحقق الهدف كاملا وهو الاستغلال الكامل .

وهكذا نشأ بين الفريقين : سكان البلاد الاصليين والمهاجمين من الاوروبيين صراع بدأ بالرعب والكراهية وسوء الظن ليتطور بعد ذلك الى القطيعة حتى في المجال الحضاري ، ومر القرنان الماضيان في صراع رهيب . اذ بدأ الاستعمار الاوربي يهاجم الهند في مطلع القرن الثامن عشر عن طريق شركة الاستغلال الانجليزية (شركة الهند الشرقية) وشركة استغلالية فرنسية ، وانتهى الصراع بين الفرنسيين والانجليز بانتصار انجلترا سنة ١٧٨٩ . وضاعت قوة الصين واستغلالها وخبت شمس حضارتها العظيمة في اواخر القرن ، وسقطت اليابان

ايضا في نفس الفترة . وهكذا تعرضت الحضارات الثلاث الكبرى في وسط وشرق اسيا للكسوف ان لم نقل للانهيار . وفي نفس الوقت بدأ الهجوم على حضارة الشرق العربي ، بدأ الانجليز يداعبون مصر في سنة ١٧٧٥ وبدأ الفرنسيون بعد ذلك بعشر سنوات وتدخل الاسطول الفرنسي في أحد موانىء تونس سنة ١٧٨٤ ونالوا امتياز احتكار صيد المرجان وانشاوا وكالة تجارية في بنزرت . ثم جاء الهجوم على الجزائر سنة ١٨٣٠ . وبدأ سقوط اوراق الوطن العربي واحدة بعد الاخرى حتى تعرت الشجرة في الربع الاول من القرن العشرين .

نحن اذن امام مواجهة خطيرة بين حضارة قديمة معتمدة على اصول صالحة للبقاء ، وصالحة كاطار لنمو عقلية جديدة ومفاهيم حضارية جديدة هي الحضارة الاسيوية الافريقية العربية التي يطبعها الاسلام ويفتح آفاقها على فكر متفتح ولكنها اصبحت حضارة ذاوية منكمشة تعتمد على الماضي وتخاف من المستقبل ، وبين حضارة جديدة متفتحة ذات آفاق اوسع ومتجهة نحو المستقبل ، وتستخدم الوسائل التقنية التي تقرب منها هذا المستقبل .

وقد كان الوطن العربي حتى نهاية الحرب العالمية الماضية محكوما عليه بأن يواجه هذا الصراع سلبيا ، لانه لم يكن يملك ان يختار السبيل التي يسلكها في تطوره الحضاري . ولكننا مع ذلك كنا نواجه ـ ونحن نتلمس المستقبل ـ عقدا خطيرة في مواجهتنا لحضارة الخصم . ومن المؤسف ان تكون هي قد اتخذت منا موقف الخصومة .

من هذه العقد :

اننا كنا نخاف من الحضارة الجديدة لان اهلها ينتسبون الى عالم اخر دينيا وعرفيا ولغويا وحضاريا ، عالم دابنا على ان نسميه عالم الكفر بكل ما تحمل هذه الكلمة من مغايرة لعالمنا الذي كنا نعتز به ونتشبث به في حماس ولهذا نحاول ان ندافع عن انفسنا ازاء الحضارة الحديثة حتى لا تغرقنا في عالمها الكافر . ومن سوء الحظ ان الذي زاد في تركيز هذه العقدة هو الاستعمار نفسه الذي حاول ان يقضي على اسس حضارتنا حتى الدينية منها واللغوية والفكرية وما حاول الاحتفاظ به من الحضارة الفنية كالاثار والفولكلور والمدن العتيقة ، انما كان بقدر ما يحقق اهداف الاستعمار ومصالحه واستغلالاته السياحية مثلا . ثم مما زاد في تركيز العقدة ان الحضارة التي حملها الاستعمار اقترنت بالجانب السيء فيها : العنصرية ، والاستعلاء الفكري ، والاغراق في المادية ، والرأسمالية الاستغلالية ، ونهب الثروة الوطنية ، وتركيز الاقتصاد النفعي ، وحتى التعليم كان ـ في كثير من البلاد العربية ـ على حساب اللغة والدين والانسية والحضارة الوطنية.

هناك اذن مركبات وعقد ازاء الحضارة الاروبية الحديثة جاءتنا من انعدام الثقة بين الوطن العربي واروبا الاستعمارية .

والان بعد ان استقلت معظم بلاد الوطن العربي واصبحت تصنع مصيرها بنفسها ، هل يجوز ان تظل هذه العقد متحكمة فينا ونحن نتلمس طريقنا نحو حضارة جديدة او نحو تجديد حضارتنا .

اذا كان للمخاوف القديمة ما يبررها فيجب في عهد بناء كياننا الجديد ان نتغلب على هذه المخاوف والعقد ، وان نتخلص منها وقد اصبح في امكاننا ان نتحكم فيما نقبله وما نرفضه من حضارة الغرب . واعتقد ان الانتصار على هذه العقد لم يعد من حقنا فحسب ، ولم يعد واجبا علينا فحسب ، ولكنه اصبح في استطاعتنا لاننا بلغنا فيما اعتقد سن الرشد ، ليس الرشد السياسي فحسب ، ولكن الرشد الحضاري كذلك .

الح على هذه النقطة بالذات لاني لاحظت في بحث الدكتور ابو لغد ما اشعرني بأن بعض هذه العقد ما يزال متحكما في النخبة المفكرة. ولذلك فان ازمة التطور الحضاري ليست عملية تعترضنا اثناء الممارسة فحسب ، ولكنها فكرية كذلك تعترضنا اثناء التفكير في طريقة الخروج من الازمة .

من هذه النقط التي لاحظتها في بحث الدكتور ابو لغد والتي يحتاج فيها الرأي الى مناقشة :

اولا : حينما قال : « ان حركات المقاومة السياسية والعسكرية في الوطن العربي نشأت للقضاء على السيطرة العسكرية السياسية للمستعمر الغربي . ورغم حرص حركات المقاومة على الاستقلال السياسي للاجزاء المختلفة للوطن العربي الا انها قبلت مبدأين اساسيين . ويهمنا في هذه المناقشة المبدأ الثاني الذي قال فيه : « نجد ان حركات المقاومة التي رافقت وحلت محل الاستعمار انطلقت من منطلقات عربية غربية ، وهدفت الى تحرير ذلك الجزء من الوطن العربي الذي نشأت فيه . ولا نود ان نقول انها رفضت فكرة الوحدة العربية او وحدة الوجود العربي ، الا انها مع ذلك مارست هذا الرفض على الصعيد العملي » . ويخلص من ذلك الى انعدام الحوار الحضاري على المستوى العربي ككل .

وهذه ظاهرة حقيقية يؤسف لها . ولكن لا ينبغي ان ننسبها لمنطلق غربي في التفكير ولا للرفض العملي لفكرة الوحدة او وحدة الوجود العربي بمقدار ما يجب ان نرجعها الى حقيقتها ، وهي التهاون في تنسيق النشاط الفكري وفي التعاون بين مراكز الحضارة كالجامعات والمجامع ودور النشر واجهزة التثقيف والاعلام . الفكر الغربي لا يعرف هذه الحدود . ويمكنك ان تقرأ الكتاب الانجليزي او الفرنسي في اي بقعة من العالم في نفس الاسبوع الذي يصدر فيه في باريس او لندن مثلا ، ولكن لا يمكنك ان تقرأ حتى كتابك في المغرب لو صدر في بيروت او الكويت مثلا الا بالصدفة . ومثل ذلك يقال عن الحوار الحضاري على النطاق العربي .

المشكلة اننا لم نجهز انفسنا بعد للحياة في العصر الحضاري الحديث . ولا ينبغي ان نعلق تخلفنا في ذلك على المنطلق الفكري الغربي .

ثانيا حينما قال :

« ان ما حدث نتيجة للوجود الاستعماري السياسي والفكري وتغلب التفكير الغربي ان الاوطان العربية قبلت اشكالا من السيطرة السياسية ونظريات الحكم المستمدة من الفكر الغربي الليبرالي والفاشي والماركسي منه ، ولم يعد للفكر السياسي العربي الاصلي اي انعكاس في الحكم في العالم العربي الا في المناطق التي تنعتها بالتقليدية والمشيخية . فان كان هناك حوار معاصر حول مستقبل الحاكم والمواطن في هذا الوطن او ذاك فانني لا ابالغ ان قلت بان هذا الحوار يقتصر اولا على تلك الفئات التي تثقفت غربيا او تلك التنظيمات السياسية التي استلهمت هذه الفكرة » ليخلص الى هذا التاكيد : « الواقع ان الفكر العربي لم يعد الى التاريخ العربي ليدرس ويوضح الاسس الاشتراكية لمجتمع عربي سابق ، وكانه باستخدام شعار معين اثبت الاصول التاريخية للفلسفة الغربية المستوردة » .

في هذه الفقرة كثير من النظريات واستنتاجات لست على وفاق مع الدكتور ابراهيم حولها :

اولها : ان تغلب التفكير الغربي هو الذي جعل الاوطان العربية تقبل اشكالا من السيطرة السياسية والنظريات الليبرالية والماركسية. هذه الفكرة يمكن ان تقال في عالم معزول لا يعيش عصره . والعالم العربي لا يمكن ان يكون معزولا عن التيارات العالمية المذهبية والسياسية . فلا مندوحة له وهو يقرأ تاريخ اليونان ان يعرف شيئا عن الانظمة الديمقراطية عند اليونان او عن سيادة القانون عند الرومان، فاحرى حينما يعايش نظم الجمهوريات الفرنسية المتعاقبة او النظام الديمقراطي الانجليزي او نظام الاممية السوفييتي او الحزب الوحيد في الديمقراطيات الشعبية الشرقية ، ولا مندوحة له عن ان يتاثر بالليبرالية الامريكية او بالماركسية كمذهب فلسفي وكنتاج حضارة فكرية .

القضية ليست قضية استعمار او تأثر بالفكر الغربي بمقدار ما هي قضية معاصرة ولا اظن الدكتور الا متفقا معي في ان حرصنا على التراث الحضاري والفكري والفني لا يمنعنا من ان نعيش عصرنا ، وان نتعامل مع المنطلقات الحضارية لهذا العصر ، كما لو كانت منا واليينا . ذلك لان القيم الحضارية الاصلية تختفي فيها الشرقية والغربية ، فهي قيم انسانية او اصبحت كذلك . ولهذا فهي ملك لنا جميعا ، اذا اقتبسنا منها ـ وليس لنا محيد ـ فليس ذلك ان الفكر الغربي الاستعماري ما يزال مهيمنا علينا . ولكن الاقتباس ليس معناه الاندماج والتعبد واقفال الفكر دون الاختيار السليم وتجاوز المعطيات التي قد لا تصلح لهذا المجتمع او ذاك والتخلص من التجارب ـ حتى الفكرية منها ـ المتجاوزة والتي برهنت عن فشلها .

وثانيها حين يقول : « لم يعد للفكر السياسي العربي الاصلي اي انعكاس في الحكم في العالم العربي » . أو حين يقول : « ان المفكر العربي لم يعد الى التاريخ العربي ليدرس ويوضح الاسس الاشتراكية لمجتمع عربي سابق » .

وانا لا اعرف فكرا سياسيا عربيا اصيلا يصمد للبقاء بشكله القديم في العصر الحاضر . فكل نظريات الحكم التي عرفها العرب والمسلمون اندمجت واختلطت بالانظمة الجديدة على اختلاف اشكالها . وحين نقتبس من الغرب فنحن لا نلغي تراث العرب الفكري في السياسة والحكم ، لان شورى النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه وعدالة العمرين يمكن تحقيقها جميعا مع الاشكال الديمقراطية البرلمانية مثلا ، ولا نكون في ذلك غربيين اكثر منا عربا او شرقيين . وعادلية المسلمين الاقتصادية والاجتماعية تنشر ظلالها على الاشتراكية المعاصرة ، ولكن لا يمكن العودة الى مجتمع عربي سابق الا اذا الغينا الزمان وعشنا منطوين على انفسنا . والتفتح الحضاري لا يسمح لنا بذلك .

نعم من الجائز ان تكون لنا انظمتنا الديمقراطية مثلا التي تتفق مع حاجياتنا وتساهم في النهوض بمستوى الحكم عندنا على اسس عربية اسلامية لتخرجه من الانظمة الاقطاعية والقبلية والطائفية والعسكرية لتكون للشعب كلمته . والفكر الغربي لا يمنعنا من ذلك ، ان لم يكن يساعدنا على اجتياز عتبة الماضي المظلم والحاضر المنحرف المضطرب .

ثالثا : احب ان اوضح ان هناك فرقا بين الاستمداد الحضاري والفكري من الغرب وبين ما صنعه الاستعمار حينما حل ببلادنا . ولهذا فانا متفق مع الدكتور ابولغد حينما يقول : « ان محاولات استئناف النشاط الفكري والسياسي سبقت الوجود الاستعماري في المنطقة ، وكان للوجود الاستعماري اثر سلبي على هذه الحركات الاصيلة بحيث انه شوهها وحول وجهتها واهدافها وسلبها اصالتها » .

فقد اوقف الاستعمار على الاقل تطور انظمة الحكم في العالم العربي جميعه والامثلة موجودة في بحث الدكتور ابراهيم اضيف اليها مثالا واحدا غفل عنه ، هو الحركة الدستورية الديمقراطية التي قامت في المغرب على يد جماعة من المثقفين الذين اشترطوا لمبايعة السلطان عبد الحفيظ سنة ١٩٠٨ عدة شروط ، منها الرجوع الى الامة والبعد عن الحكم الفردي المطلق ، والوقوف في وجه الاستعمار والجيش الاستعماري الذي كان قد اخذ يهاجم المغرب من اطرافه على الحدود الجزائرية ، وفي شواطىء الدار البيضاء . ثم وضعوا مشروع قدموه للسلطان ليصادق عليه ، ويؤكد هذا الدستور استقلال المغرب ، والحريات العامة ، وحرية الراي والتعبير والنشر ، والزامية التعليم ، والمساواة في الحقوق والواجبات وضمان العدل ، كما ينظم السلطات بين مجلس الامة والسلطان وغير ذلك من الاسس الديمقراطية . وقد فاجا الاحتلال المغرب قبل تنفيذ هذا الدستور وبداية المرحلة الديمقراطية . واحنجنا الى اكثر من نصف قرن لنسمع بمشروع دستور آخر للمغرب . وما يزال الوضع الديمقراطي مضطربا غير مستقيم .

وكان الاستعمار الغربي هو السبب .

هناك اذن عصا وضعها الاستعمار في دواليب التطور الحضاري في الوطن العربي . ولكن ليس المسؤول عنها الفكر الغربي الذي تسرب الى الوطن العربي ، ومنه استمد هذه الانظمة والتفكير فيها ، بقدر ما هو مسؤول الاستعمار الغربي وفرق بين الرايين .

رابعا : يذهب الدكتور ابولغد الى ان التجزئة السياسية التي احدثها الاستعمار قبلتها ومارستها الحركات الوطنية التي استلمت الحكم في هذه البلاد .

ورغم انني من الوحدويين العرب ، ومن الذين ناضلوا في سبيل وحدة المغرب العربي منذ الاربعينات ، ورغم ان بلادي المغرب كانت من اشقى البلاد العربية التي اصابها الاستعمار بالتفتت والتمزيق فقسمت الى دول وافتطعت منها اجزاء وما يزال الاستعمار يحتل اجزاء منها ، رغم ذلك كله فاني اعتقد ان الاستعمار ليس مسؤولا عن التجزئة السياسية في الوطن العربي . فلم يكن هذا الوطن في يوم ما وحدة كاملة حتى في عهد الخلافة العباسية . حقا لقد مر الوطن العربي بوحدات اقليمية . المغرب العربي في عهد المرابطين والموحدين وبعض فترات المرينيين، مصر والشام في عهد الايوبيين وعهد محمد علي وابنه ابراهيم ، بلاد الشام في كثير من عهود التاريخ . وحقا ان الامبراطورية العثمانية وحدت البلاد العربية في مجموعة ولايات ، ولكن كل ذلك لم يعط الطابع الوحدوي السياسي لهذه البلاد جميعها . ولهذا فالوحدة التي عرفها الوطن العربي هي الوحدة الفكرية الثقافية الحضارية ، الدينية اللغوية ، وهي بدون شك اقوى من الوحدة السياسيه او هي السبيل الى تحقيق الوحدة السياسية لو اردنا ذلك . وهذه الوحدة لم يستطع الاستعمار ان يقضي عليها ، ولم يستطع الفكر الغربي الذي احيى النزعات الاقليمية كالفرعونية والبربرية والفنيقية والزنجية .

معنى هذا ان الحركات الوطنية التي استلمت الحكم بعد الاستعمار لم ترث واقعا استعماريا تبنته ولم تحاول تغييره ، ولكنها ورثت واقعا تاريخيا ـ ان صح التعبير ـ ستنجح في تغييره لو تبنت الامة العربية فكرة حضارية جديدة تقوم على اساس الامة العربية بالمعنى الحضاري الثقافي الفكري الاقتصادي لهذه الامة ، الا بالمعنى العرقي .

فماذا نريد ان نكون وما هي الحضارة التي نريد ان نبني . هذا هو جوهر الازمة .

نحن لا نستطيع ان نتخلص من كل هذه المظاهر الحضارية التي وفدت علينا مع الغرب بكل سيئاتها التي عرفنا وبكل محاسنها التي تغري . ولا نستطيع ان ننهزم امام التحدي الحضاري الذي واجهنا مع الاستعمار ، ولا نستطيع ان نتخلص من ماضينا وتراثنا ومفاهيمنا للحياة ، ولكنا لا نستطيع ان نتوقع حول هذه المفاهيم القديمة حتى لو اردنا ذلك .

هناك صدام بين التراث كما ورثناه في مظاهره الفكرية والاجتماعية والابداعية الفنية من ادب ورسم وموسيقى وفنون شعبية، وبين المعاصرة الحضارية كما وردت علينا من الغرب والشرق . وهناك صدام بين الانظمة التقليدية التي ورثناها في الحكم وفي الاقتصاد ، وبين الانظمة الحديثة المتمثلة في مظاهرها الديمقراطية الغربية او الدكتاتورية المقنعة ، او الديمقراطية الاجتماعية ، وفي مظاهرها

الليبرالية والاشتراكية والشيوعية .

اننا لا نستطيع ان ننتمي انتماء كاملا لحضارة الغرب بكل آفاقها وبكل تجاربها الناجحة والفاشلة .

وقد يكون هذا الموقف غريبا من عالم يتفتح على المستقبل ، ازاء حضارة برهنت على تفوقها وعلى قدرتها على الوصول الى المستقبل في الحاضر . قد يكون نوعا من الرجعية وعدم اعتراف بالتفوق الحضاري الحديث او عدم ثقة فيه ، وذلك مظهر من مظاهر عقدة الخوف التي اشرنا اليها سابقا .

ولكنا مع ذلك لا نستطيع ان ننتمي الى عالم عربي اسلامي مقفل فنولي ظهرنا للتطور الحضاري الغربي ، وقد قلنا من قبل اننا لا نستطيع ذلك ولو اردنا .

الانتماء الكامل للغرب ولو باعتبار مصر ـ مثلا ـ جزءا من اوروبا كما كان المنادون ينادون في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن ، او اعتبار المغرب جزءا مما وراء البوغاز ، لان هذا الانتماء او ذاك لا يحل المشكلة .

والتقوقع في عالم عربي اسلامي مقفل لا يحل المشكلة كذلك .

فما هو الموقف ؟

امامنا مثال من اليابان والصين على اختلاف الاتجاهين . فقد اقتحمتها معا الحضارة الحديثة،واقتبستا من الغرب منهجهما المختلف، على اساس مذهبين مختلفين في ثورتهما الفكرية والاقتصادية والاجتماعية ، ولكنهما معا ينتميان الى اوربا وامريكا ، بكل ابعادهما وآفاقهما . الصين جزء من العالم الاوربي الشيوعي ، ولكنها ما تزال الصين في اسسها الحضارية تستمد من تاريخها وتراثها الفكري وربما العلمي والطبي . اليابان جزء من العالم الاوربي الامريكي في تقنيتها الصناعية ونشاطها الاقتصادي والعمراني ، ولكنها ما تزال اليابان في تقاليدها واسسها الحضارية وتراثها القديم حتى الخرافي منه .

هل ذلك يعني ان هناك واجهتين للحضارة : واجهة متحركة متجددة نافقة وهي التي تساير الحياة ، وواجهة تعيش مع الماضي وتصلح لتكون حضارة المتحف .

يخيل الي ان المثال من الصين واليابان يضعنا في عمق ازمة التطور الحضاري وهو الاخر لا يحل المشكلة .

ونعود فنسال : ماذا نريد ان نكون وما هي الحضارة التي نريد ان نبني .

في غمرة التفكير في الازمة نؤكد لانفسنا ان المظهر العام للحضارة الحديثة غربية او شرقية سيصبح انسانيا . فهي ليست حضارة اوربا او امريكا فحسب ، ولكنها تستمد اسسها من كل التراث الانساني ، ويجب ان تعود تراثا لكل الانسانية . هي اذن حضارتنا بمقدار ما هي حضارة الاوربيين والامريكيين ، لان اوربا هي اليونان بكل تراثها الفكري والفلسفي والفني ، وامريكا هي روما بكل تراثها التوسعي وكل عملها الكبير العظيم ، وتراث اليونان والرومان مر ـ او بعضه على الاقل ـ من هنا ، من ارض العرب ليصل الى اوربا ثم امريكا ... فهذه الحضارة اذن تراث لنا فيه ضلع ، ولا يمكن ان نجحد ما ساهمنا في اقامة اسمه بعد ان اصبح انسانيا عالميا .

وعلى ذلك فموقفنا من هذه الحضارة يجب ان يتسم بالفهم الصحيح لمسؤوليتنا في الحياة العصرية وفي بناء كياننا على اساس من الواقع حتى لا نكون مرة اخرى ضحية للاستعمار نتيجة لتخلفنا الذي سياخذ طابعا اخر .

هناك الحضارة الفكرية التي يجب ان يعتبر كل تراثها القديم الاوربي والاسلامي والمسيحي والعربي تراثا انسانيا . ولا محيد لنا عن المساهمة في تطور الفكر الانساني دون اية عقدة او مركب ، نقبل او نرفض لا يهم ، ولكن المهم ان يكون كل هذا التراث لنا نساهم فيه كما تساهم فيه اية دولة من قلب اوربا او من اطراف آسيا او امريكا .

وهناك الموقف من الحضارة الاقتصادية . جانبها العملي لن يستثيرنا ، فقد اصبح اقتصادنا كمنتجين ومستهلكين جزءا متمما للاقتصاد العالمي ولا محيد عن ان يكون كذلك . فقد نقف موقف الاختيار بين الليبرالية والاشتراكية المقيدة ، تملي علينا هذا الاختيار مصلحة شعوبنا الفقيرة الجائعة وسرعة التطور حتى في العالم الثالث، ولكن لا بد من ان نسير في تيار الحضارية الانسانية الحديثة .

هناك الانظمة السياسية التي ما نزال نعيش فيها كما يعيش العالم الثالث موزعين بين الحكم الفردي بمختلف مظاهره ، ولا سلطان للشعب على مصيره ، وبين الحكم العشائري والقبلي والطائفي . ولا يمكن ، ونحن بسبيل الى التطور من هذه الانظمة المتخلفة ، ان نعود الى الانظمة القديمة مهما كان طابعها اسلاميا او عربيا . لا بد من ان نساير العصر لنختار بين الانظمة الديمقراطية اصلحها لبلادنا واكثرها تحقيقا للحرية واضمنها لمشاركة الشعب في تدبير شؤونه .

وهناك الجانب الابداعي في الحضارة الانسانية : الاداب والفنون الجميلة والفنون المعمارية . وعبقريتنا في هذه الحضارة ان تذوب اذا ما سلكنا سبيل الحضارة الانسانية فيما ننتج من آداب ورسم وموسيقى ورقص ومعمار .

وهناك الحياة اليومية التي يطبعها الاقتصاد والفكر والسياسة ، تتحكم فيها كل هذه المنابع لتصوغها حياة مماثلة لحياة الانسان في اوربا وامريكا والصين واليابان .

موقفنا من كل هذه الافاق الحضارية لا يعني اننا سناخذ ونقلد لنصبح صورة ممسوخة من الغرب او الشرق ، ولكنا ، ونحن نندمج في هذه الحضارة دون عقدة او خوف ، سنحتفظ بتراثنا ننهل منه كل ما يساهم في تطورنا الحضاري ، ولا يقف حجر عثرة في سبيل تحررنا من التخلف ، وكل ما يطبع منهجنا بالذاتية والتفرد .

سنكون انسانيين ، ولكنا عرب ومسلمون نساهم في الحضارة الحديثة بكل ابعادها ولكنا نحتفظ بذاتيتنا حتى لا نكون ذيلا للآخرين . ندرس بعمق كل التيارات الفكرية المعاصرة ، ولكن لا يكون بعضنا متعبدا في محراب الرأسمالية او الشيوعية الا عن اقتناع فكري وليس عن انجذاب وراء الشعارات .

بهذا التحرر من جميع العقد يمكن ان نحل مشكلة التطور الحضاري ، ويمكن بالتالي ان نقضي على رواسب الاستعمار الذي حاول ان يسلب عن بلادنا كل اصالة حضارية وفكرية في الوقت الذي حاول ان يجعلها صورة ممسوخة لمثاله .

دار الطليعة تقدم

دراسات ادبية

ق.ل

- لعبة الحلم والواقع: دراسة في ادب توفيق الحكيم ٤٥٠
  جورج طرابيشي
- الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية ٢٥٠
  جورج طرابيشي
- مذكرات ثقافة تحتضر ٧٥٠
  غالي شكري
- ثقافتنا بين نعم ولا ٤٥٠
  غالي شكري
- حتى تقهر الموت ٣٥٠
  صلاح عبدالصبور
- الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الاول ٥٥٠
  د . حسين عطوان
- وجها الحياة ٢٠٠
  البير كامو

بيروت ـ ص . ب ١١١٨١٣